

الحرف اللاتيني والعربية

للأستاذ محمود محمد شاكر

—

ربَّ رجلٍ واسع العلم ، بجرِّ لا يزاحم ، وهو على ذلك قصر العقل متسلِّل الناية ، وإنما يعرض له ذلك من قبَل جُرْأته على ما ليس له فيه خبرة ، ثم تهوُّره من غير روية ولا تدبر ، ثم إصراره إصرار الكبرياء التي تأتي أن تعقل . وإن أحدنا ليقدِّم على ما يُحسِّن ، وعلى الذي يعلم أنه به مضطلع ، ثم يرى بعد التدبر أنه أسقط من حسابه أشياء ، كان العقل يوجب عليه فيها أن يتثبت ، فإذا هو يعود إلى ما أقدم عليه فينقضه نقض القسْز .

ومن آفة العلم في فن من فنونه ، أن يحمل صاحبه على أن ينظر إلى رأيه نظرة المعجب المنزه ، ثم لا يلبث أن يفسده طول التماهى في إعجابه بما يحسن من العلم ، حتى يقذفه إلى اجتلاب الرأى فيما لا يحسن ، ثم لا تزال تفريه عادة الإعجاب بنفسه حتى ينزل ما لا يحسن منزلة ما يحسن ، ثم يُصرَّ ثم يغالى ثم يعتصم ثم يستكبر . . . ثم إذا هو عند الناس قصير الرأى والمقل على فضله وعلمه .

فمن ذلك أنى قرأت في عدد مجلة « المصور » ١٠١٥ بتاريخ ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٣ حديثاً لصاحب المعالي عبد العزيز فهمى باشا عن « الإسلام والحروف العربية » فرأيتُه يفتتح حديثه بهذه الكلمة ، إذ يقول لسائله :

« إني لا أعنى نفسي ألبتة بالاطلاع على ما قد يقال من هذا الهراء الذي هو أهون على من القبار الذي يحسن ردائى وحذائى ، فإياك أنت تهتم بما لا أكرث له ؟ »

وعبد العزيز فهمى رجل كنا نعرفه بالجد والحرص والفقہ وطول الباع في القانون ، وكنا نظنه رجلاً يحكم العقل من جميع نواحيه ، لا يتدهور إلى ما ليس له به عهد ، ولا يرى بنفسه في غمرات الرأى إلا على بصيرة وهدى . فلما قال ما قال عن الحروف العربية في الجمع ، ونشرت الصحف قوله ورأيه ، قلنا : عسى أن يستفيق الرجل ويعود إلى سالف ما عهد فيه من الحكمة والمنطق ، وأن يكون ما قال خالماً لخدمة العربية ، فإن يكن في

في رأيه شيء من الصواب فسيحقق الجدل الذي يدور بينه وبين الناس فضيلة رأيه على الآراء ، وإن يكن أخطأ فهو خليف أن يرجع إلى صواب الناس غير معاند ولا لجوج

كان هذا ظننا فيه ، فلما قرأت فاتحة حديثه التي رويتها قبل ، علمت أن الرجل لن يستفيق ، ولن يعود ، ولن يعقل ما يقول الناس — وما ظنك برجل من رجال القضاء — رجل مارس العقل والفهم وتقلب الرأى ، والتثبت من الحجج المتضاربة الموهمة ، والحرص على أدق الصغائر لا تخدعه عن عدله وإنصافه ؟ ما ظنك برجل هذه صفته يزعم أنه لا يطلع ، بل لا يعنى نفسه بأن يطلع على آراء خصمه ! ثم ما ذا ؟ ثم ترى هذا القاضي العادل ، بعد أن شهد على نفسه وأقر أنه « لا يعنى نفسه ألبتة بالاطلاع على ما قد يقال » ، يصف هذا الذي لم يطلع عليه ولم يقرأه ولم يتم فيه ، بأنه « هراء » ! ؟ فن أين علم ؟ وكيف حكم على شيء لم يقرأه ؟ ثم يزيد فيقول إن هذا الهراء الذي لم يقرأه ، أهون عليه من القبار الذي يحسن ردائه وحذائه ! ثم يبالغ فيعنف سائله ويتعجب له ويسخر منه ، ويقول له : ما بالاك أنت تهتم بما لا أكرث له ؟

وهذا التسلسل العجيب الذي كنا لا نظنه مما ترضى عنه بعيرة رجل مفكر ، فضلاً عن قاض حريص ، فضلاً عن رأس من رموس القانون ، فضلاً عن نابغة من نوابغ مصر ، قد كان ، ورضى عنه عبد العزيز فهمى باشا ، وجعله حجته ومنطقه في حومة الرأى والجدال . ولعل الغضب هو الذي احتمله حتى أضله عن مواطئ حجته ، ثم تركه يتقصَّر في كلامه ، حتى اقترب من اللفظ والمنطق ما لا يليق به

ونحن سنرضى أن نكون في القبار الذي يحسن ردائه الباشا ، وفي القبار الذي يحسن حذائه ! ونسأل الله أن يجعله بركة للناس وخيراً ، وأن يسبغ عليه من نعمه ما هو له أهل ، وأن يسدد خطاه حيث ذهب ، فحينما اهتدى الباشا كنا من القبار الذي يهتدى بهدى حذائه ! وسواء علينا بعد ذلك أقرأ هذا الهراء أم لم يقرأه !

نحن نسلم للأستاذ الجليل بما يقول عن صعوبة الحرف العربى المكتوب ، وبأنه يعوق القراءة ، وأنه يجعل العربية أبعد متناولاً عن عامة الناس ، نسلم له بهذا ، ثم ننظر كيف يكون الرأى الذى اعتسفه مظنة للتسهيل ، ومدعاة لنشر العربية !

الاسم الظاهر والضمائر ، في التثنية والجمع أيضاً ، ثم اجمع الأسماء على اختلاف صور الجوع الممكنة فيها ، ثم اقل ذلك بالبادة حين يزداد فيها ما يزداد مثل « أقام وقوم واستقام » ، وصرفها في الوجوه التي ذكرناها ، وتبين حركات الإعراب في سياق الكلام ، وضع كل ذلك أمامك مكتوباً بالحرف العربي ، ثم بالحرف اللاتيني ذي الحركات التي تجعل الكلمة مرسومة كمنطوقة . ثم انظر إليهما ، فهل تستطيع ، غير معاند ولا لجوج ، أن تميز بين كلمة وكلمة ، وأن تبين الشبه بين هذه التقاربات من مادة واحدة في اللغة ؟ ونحن قد جربنا على أسلوب صاحب اللاتينية ، فجربنا ذلك بأنفسنا فاهتدبنا ولا أدركنا ، وصارت الكلمة الواحدة التي لا تخطئها العين في العربية ، ولا تخطئ الشبه بينها وبين صواحيبها ، كلمات لا يُدرى ما هي ! وهذا شيء قائم على الجس والتجربة والعيان^(١)

فإذا عرف ، من لا يستكبر عناداً ولجاجاً ، أن ذلك مما يُضِلّ ويعمي ، نظر فإذا هو يرى أن أول التضييل في رسم العربية باللاتينية ، أن يضع على القارى تبين اشتقاق اللفظ الذي يقرؤه ، فإذا عُسِر عليه ذلك صار اللفظ عنده بمنزلة المجهول الذي لا نسب له ، وصار فرضاً عليه أن يعتمد إلى رسم المادة الواحدة من اللغة في جميع صورها التي تكون في السياق العربي ، ثم عليه أن يحاول تقريب الشبه بالذاكرة الواعية ، ثم عليه أن يحفظ معاني ذلك كله . فإذا كان هذا شأنه في المادة الواحدة فما ظنك باللغة كلها ؟ يومئذ تصبح العربية أجهل لطلابها من اللغة الصينية . نعم ، وإذا ضل عن تبين الاشتقاق والتصريف ، فقد ضل عن العربية كلها ، لأنها لم تبين إلا عليهما . وهي من هذا الوجه مخالفة لجميع اللغات التي تكتب بالحرف اللاتيني ، لأن الاشتقاق والتصريف يفرضان لها من قبل بناء الكلمة كلها ، حتى تختلف الحركات على كل حرف في كل بناء مشتق أو مصروف ، ثم يزيد على ذلك ما يدخل على الكلمة من جميع ضروب الحروف العاملة وغير العاملة ، ثم علل الإعراب والبناء والحذف ... إلى آخر ما يعرفه كل مبتدئ في العربية فإذا كان هذا هكذا ، وكان التضييل كائنًا فيه ، وكان هذا

(١) لقد تخيلنا أن نرسم الكلام العربي في هذه المادة ، ووجوه التصريف والواو ، لأنها بسيرة على القارى فهو يستطيع أن يستخرجها جميعاً ويرسمها لنفسه وينظر أي عثرة يرى !

وكيف يكون هو الذي يخرج الحرف العربي الغامض إلى البيان والوضوح ، فلا يكون مضلاً ولا معوقاً ، فإنه زعم أن : « ليس لدى المسلمين وغيرهم من أهل البلاد العربية وقت فائض يصرفونه في حل الطلام » ! هذا هو محصول رأيه

فما هذا التضييل الذي زعم ؟ لقد قال من قبل إن الذي دفعه إلى هذا الرأي هو تيسير الكتابة العربية ، « لأن حروف هذه اللغة ليس بينها حروف حركات ! وكثيراً ما يحدث فيها التصحيف والتحريف لهذا النقص . فهما تعلمها الإنسان فلا بد أن يخطئ في قراءتها ، وقد عالج الأقدمون هذا الشكل الكبير بوضع الشكل ، ولكن هذا الشكل قد أفلس ، بل كان مجلبة لزيادة التحريف والتصحيف »

ودليل الاضطراب لم يزل يظهر في هذا المنطق كما ظهر في حديث محرر المصور ، وهو سؤال وجواب لا عنت فيهما ، فأول الوهن وأول الفساد في هذا المنطق أننا رأينا في اقتراحه قد أبقى الحروف المعجمة (المنقوطة) ، وقصر ما ادعاه من التضييل والصرف على (حروف الحركات) . وهذا عجب . فالإنجام (النقط) هو في التصحيف والتحريف بمنزلة الشكل أو أقل منه قليلاً ، فكان لزاماً عليه أن يبحث مسألة الحروف المعجمة ، ويخلص العربية منها ليدر أعنها التصحيف والتحريف ! ولكنه لم يفعل ، ولم ؟ لا ندري !

ومع ذلك ، فلنفرض أننا أدخلنا ما سماه (حروف الحركات) في كلام عربي مكتوب باللاتينية ، ثم لنفرض بعد ذلك أنه قد أجدى ونقى التضييل من هذا الوجه . ولكن يبقى أن ننظر : أينبقى التضييل البتة ، أم هناك نوع آخر من التضييل يجره هذا العمل ؟ وأي التضييلين أهون شأنًا ؟ فإذا تساويا بطلت الحاجة المرجحة ، وإذا غلب أحدهما كان الانصراف إلى أخفهما ضرورياً هو الوجه الذي لا ممدل عنه . أليس هذا هو منطق الناس يا صاحب الحروف اللاتينية ، أم تراه يذنب أن نسير على هدى منطقك ؟

نفذ إليك مادة من العربية مثل « قام » ، ثم اجعلها فعلاً ، ماضياً ومضارعاً وأمرأً ، وألحق به ما يلحقه من الضمائر ، وأدخل عليه ما يدخله من قبل أوله وآخره مثل « فليقمهن » وفي التثنية والجمع ، والخطاب والتبعية ، ثم أخرج جميع مشتقاته من الأسماء ، وألحق بها ما يلحقها ، وضمها في حالة الإضافة إلى

التفصيل واقعاً في أصول الاشتقاق والتصريف ، الذي يردّ القارىء إلى أصل المادة اللغوية . وإذا كان الضلال عن أصل المادة ضلالاً عن معناها ، فأى تسييلين أغمض وأضل : سبيل 'عسر القراءة' لعدم (حروف الحركات) ، أم سبيل امتناع الفهم لامتناع الاهتمام إلى أصل الاشتقاق ؟ ونحن لا نشك في أن كل رجل ذى بصيرة حسن النطق ، سيجد في هذا وحده من المشقة والعسر ، ما لا يدع اختياراً في الاعتراف بالضلال المطبق الذي تجلبه الكتابة بالحرف اللاتيني ، وأن التصحيف والتجريف الذى يدخل الحرف العربى أهون بكثير من الاختلال والفساد والمضلة والعبث التى يجربها الحرف اللاتيني

وإذن فغاية الشروع الذى اتجده ، أن ييسر نطق الكلمة المكتوبة في حال أفرادها ، غير ناظر إلى سهولة الاهتمام إلى الاشتقاق الذى هو أصل العربية ، وأراد أن يأمن الخطأ في الإعراب ، والتجريف في ضبط الكلمة ، فذهب كل شيء ، ولم يفكر ماذا يجلب مشروعه من التضييل والتشويه والتعسير والاستحالة ، والنموض الأعمى الذى لا يهتدى إلى شيء في هذه اللغة العربية ! وهذا وحده عجب أى عجب

هذه واحدة ، ثم زعم الباشا أن الحروف العربية تعوق القراءة ، فهما تعلمها الإنسان فلا بد أن يخطئ . وأن هذا الشكل قد عالجَه الأقدمون بوضع الشكل ، ولكن هذا الشكل قد أفلس ، بل كان مجلبة لزيادة التجريف والتصحيف !

هما علتان ، ثم علتان ملفقتان قد غلغل فيهما البطلان ، ونخرتهما المغالطة في الصميم وفي النطق . ونحن لن نناقش اليوم هاتين العلتين إلا من وجه واحد يظهر به فسادهما ، أما سائر الوجوه فنضعها حتى يحين وقتها ومكانها من الكلام . فالخطأ عندنا لا يعود إلى صعوبة الحرف المكتوب ، وإنما يعود إلى القارىء الخطيئ نفسه ، وهذا هو وضع القضية عندنا : إذا كان التكلم حين يتكلم يستطيع أن يسوق كلامه على العربية الصحيحة غير خطيئ ، فحال أن يخطئ فيها عند القراءة مهما اختلف الخط عليه سهولة وصعوبة ، لأن النطق سابق للقراءة ، فالذى لا يخطئ وهو يتكلم (أى كأنه يقرأ من حرف غير مكتوب) ، لا يأتانى له أن يخطئ وهو يقرأ حرفاً مكتوباً ظاهراً مجزأً بيمض الدلالات . وإذا عولج بعض العسر بوضع الشكل على الحروف ، فالخطأ عندئذ أشد استحالة لوجود دلالات

صريحة لا تقل في إفصاحها وبيانها عن حروف الحركات التى أرادها صاحب هذا المشروع اللاتينى ، ومن ثم ففى ليست مجلبة لزيادة التصحيف والتجريف كما زعم . أما قوله ، في خلال ذلك ، إن الشكل قد أفلس ، فهذا حكم باطل في قضية باطلة بطبيعتها ، وما دامت القضية في أصلها لا تصح على الوضع الذى لفقته ، فالحكم نفسه لم يدخل إلا زيادة في التلغيق . لقد نسي صاحب الحروف اللاتينية أن الإعراب في العربية شيء يختلف اختلافاً كبيراً عن سائر اللغات المكتوبة بالحروف اللاتينية ، وأن الخطأ فيه لن يكون من قبل الكتابة سهلة أو صعبة ، بل هو راجع إلى التكلم أو القارىء من قبل الضعف والقوة والعلم والجهل ليس غير

وأما ثالثة الأتافي ، كما يقولون ، فهو زعمه أن « ليس لدى المسلمين ، وغيرهم من أهل البلاد العربية ، وقت فائض بصرفونه في حل الطلاسم » ! فأى طلاسم ؟ أى الطلاسم التى تدخل على كل حرف من الحروف في المادة الواحدة ، ألواناً من الحركات تكتب بين كل حرف وحرف ، وفي أواخر كل كلمة ، وتقف فواصل متباينات بين حروف مادة واحدة من لغة بنيت على الاشتقاق وعلى الاختصار ، وجاء فيها الجوع المختلفة ، والصفات والأبنية ذوات المعاني ، واختلاف المصادر وأسماء الزمان والآلات ، والترخيم والنسبة ، والإضافة والتقاء الساكنين ، وأحكام الإعلال والإبدال والإدغام ، إلى آخر هذا كله ، مما يفتقر الأبنية والأطراف والأوساط ، هذا إلى كثير من أحكام النحو الأخرى التى تفزع من يتقربها إذا هو أراد جدال صاحب الحرف اللاتينى ! أهذه هى الطلاسم أم تلك ؟ وأيهما أفسد لوقت المسلمين وغيرهم من أهل البلاد العربية ؟ بل أيهما أضرعى وأشنع فتكاً وشراسة ؟ بل أيهما الذى يقول العقل لا الوقت وحده !

ولكنها فتنة ! فتنة اغتر بها شيخ صالح ، فاستغلها من لا يرى للعربية حقاً ولا حرمة ، ولولا بعض حسن الظن لقلنا : لا تأمنوا قوماً أشب صبيهم بين القوايل بالعداوة ينشع فضلت عداوتهم ، أحلامهم وأبت ضباب صدورهم لا تنزع إن الذين تروهم إخوانكم يشقى غليل صدورهم أن تصبروا وأى مصرع ياصاحب المعالي ! علمك الله الخير وهذاك إليه وسددك وحفظك .

محمد محمد شاكر